الأسوة الحسنة

أصول الدعوة

إعداد أ/ محمد الجوهري

قسم الدعوة وأصول الدين

كلية العلوم الإسلامية – جامعة المدينة العالمية

شاه علم - ماليزيا

waleed.eltantawy@mediu.edu.my

***خلاصة*—هذا البحث يبحث في معني الأسوة الحسنة، ومنهج الأسوة الحسنة لدى النبي.**

الكلمات الافتتاحية: الأسوة الحسنة.

I. *المقدمة*

الحمد لله والصّلاة والسّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمّا بعد أخي الطَّالب، سلامٌ من الله عليكَ ورحمةٌ منه وبركات، ومرحباً بك في سلسلة الدُّروس المقرَّرة عليك في إطار مادَّة أصول الدعوة ، لهذا الفصل الدِّراسيّ، آملينَ أن تجدَ فيها كلّ المُتعة والفائدة، وفي هذا الدرس نتعرف على معني الأسوة الحسنة، ومنهج الأسوة الحسنة لدى النبي..

II. موضوع المقالة

- معنى الأسوة الحسنة لغة واصطلاحًا:

الداعية إلى الله -عز وجل- يجب أن يكون قدوة حسنة وأسوة طيبة لمدعويه، كما أن عليه أن يقرن بين القول والعمل في الدعوة؛ فيدعو إلى الله بلسانه، كما يدعو إلى الله - عز وجل- كذلك بعمله وسلوكه، وذلك من خلال الأسوة الحسنة، ونبدأ أولًا بتعريف الأسوة الحسنة؛ فنقول: "الأسوة" لغة اسم مصدر من الاتساء، وهي مأخوذة من مادة "الهمز والسين والواو" التي تدل على المداواة والإصلاح؛ يقال: أسوت الجرح إذا داويته، ولذلك يسمى الطبيب: "الآسي".

الاتساء؛ كالقدوة من الاقتداء: اسم وُضِعَ موضع المصدر أي: به اقتداء حسن.

وأما في الاصطلاح؛ فقد قال المُنَاوي : الأسوة: الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره؛ إن حسنًا وإن قبيحًا، وإن سارًّا وإن ضارًّا، ومن هنا فالأسوة لها معنيان؛ معنى حسن، ومعنى سيء، معنى سارّ، ومعنى ضار، فهناك إذن الأسوة الحسنة، وهناك كذلك الأسوة السيئة، قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسير قوله تعالى : {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ } [الممتحنة: من الآية: ٤]:الأسوة: القدوة، وهي اتباع الغير على الحالة التي يكون عليها؛ حسنة أو قبيحة.

قال القرطبي: واختلف في هذه الأسوة بالرسول - صلى الله عليه وسلم- هل هي على الإيجاب أو على الاستحباب، على قولين:

أحدهما: على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب.

الثاني: على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب.

ويحتمل أن يُحْمَلَ على الإيجاب في أمور الدين وعلى الاستحباب في أمور الدنيا، هذا عن المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة الأسوة.

٢- منهج الأسوة الحسنة لدى النبي -صلى الله عليه وسلم-:

فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو إمام الدعاة، تَوَفَّرَ لَهُ هذا المنهج، فمنهج الأسوة الحسنة هو المنهج الذي امتاز به الصادق الأمين سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم- في كل أطوار حياته الإنسانية الطاهرة الكاملة، وهو المنهج الذي يجب أن يلتزمه الدعاة في حياتهم، ويتحلوا به تأسيًا برسول الله - صلى الله عليه وسلم- كما قال الحق - تبارك وتعالى-: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } [الأحزاب: من الآية: ٢١] وهذا المنهج يتم ثل في سلوك الداعية وتصرفاته؛ لأن الداعية إلى الله - عز وجل- يهدي بحاله أكثر مما يهدي بمقاله، وإمام الدعاة سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- كان يمتاز بسلوك ما عُرِفَ لدى بشر قط؛ لأن الله - سبحانه وتعالى- هو الذي تكفل بتربيته، ويكفي في ذلك دليلًا أنه قبل أ ن يحمل أمانة التبليغ من قبل الخالق -سبحانه وتعالى- لقبه قومه باللقب الجامع المانع "الأمين"، وذلك في وقت عزت فيه الأمانة، وضاع فيه الأمان، ومتى ما اتُّصِفَ الْإِنْسَانُ بِالْأَمَانَةِ فَقَدِ اتَّصَفَ بِخِلَالِ الْكَمَالِ؛ لِأَنَّها كل شيء في علاقة الإنسان بالإنسان.

"الأمانة" في القول، و "الأمانة" في العمل، و "الأمانة" في القيادة والتوجيه؛ كيف لا والله -سبحانه وتعالى- هو الذي أدبه واصطفاه؟ ! فلم تستطع مساوئ المجتمع أن تقتحم عليه أسوار نفسه المنيعة بالعصمة الإلهية، أما أثر سلوكه - صلى الله عليه وسلم- قبل البعثة في استجابة السابقين، فقد تجلى أثر هذا السلوك واضحًا في انقياد السابقين الأولين إلى دعوة الحق، وإذعانهم لها وإيمانهم بها؛ لما عرفوه من شمائل رسول الله - صلى الله عليه وسلم- عن كثب وقرب؛ فإن أول من نطق بكلمة التوحيد مؤمنًا بالله تعالى ورسوله - صلى الله عليه وسلم- من الرجال هو أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- وكان الباعث الذي دفعه بقوة حينما دعاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم- إلى الإسلام فأقبل بِكُلِّيَّتِهِ، وَنَطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ من غير كبوة هو إعجابه بسلوك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأنه رفيقه منذ الصبا، فقد عايشه، وشهد من سلوكه القويم ما ملأ قلبه إعجابًا ويقينًا بأنه صادق في خبره عن ربه -عز وجل- لذا قال له حين دعاه: "بأبي أنت وأمي أهل الصدق أنت، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله" ولذا قال في حقه رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عَكَمَ حين ذكرته له، وما تردد فيه».

وأول من آمن به - عليه الصلاة والسلام- من النساء خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- ودفعها كذلك إلى الإيمان به - صلى الله عليه وسلم- علمها اليقيني بصدقه وأمانته؛ لأنها ألصق الناس به، وأكثرهم دراية بباطن أمره، وبالطبع أنه لا يعرف أحد من الناس أحدًا مثل ما يعرف الزوجان بعضهما، فقد جاء يرجف فؤاده بعد أن نزل عليه الوحي بغار حراء لأول مرة، وقال لها : «زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة : أي خديجة، ما لي؟ وأخبرها الخبر، قال : لقد خشيت على نفسي، فقالت له خديجة : كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

وبعد أن أمره ربه بالقيام بواجبات النذارة ومه امها امتثل لأمر الله - عز وجل- فدخل السابقون الأولون في الإسلام؛ لما عرفوا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من سجايا الإنسان الكامل في وقت كان النقص في أفراد البشرية، ومن كل وجه هو الطابع السائد، وفي كل مظهر من مظاهر الحياة عند الخاصة والعامة، وعند الحكام والمحكومين، وهذه الشهادة التي تقدم بها جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه وأرضاه- إلى ملك الحبشة النجاشي هي خير شاهد ودليل، وذلك عندما ذهب المسلمون إلى الحبشة في الهجرة الأولى، وأرسل المشركون في أثرهم وفدًا إلى النجاشي؛ ليردهم فأبى النجاشي إلا أن يسمع منهم، فطلب لقاءهم وقال لهم : ما هذا الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟ فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه- فقال له : أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء ال جوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه.

فهذه هي الأخلاق التي وصف بها النبي - صلى الله عليه وسلم- قبل البعثة، وهذا ما أكد عليه سيدنا جعفر بن أبي طالب : حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأ مرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فعدد عليه أمور الإسلام، وقال : وصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، وهذا يدل على أن الدافع لهم ليؤمنوا به كان أولًا متمثلًا فيما عرفوه عنه من نسب وصدق وأمانة وعفاف، ومن هنا كان جوابهم: فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل م ن الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، فقرأ عليه صدرًا من سورة مريم، فبكى والله النجاشي حتى أُخْضِلَت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تَلَا عليهم، ثم قال له النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقوا؛ فوالله لا أسلمكم إليهم أبدًا، ومثل هذا الظلم والظلام هو الذي كان يسود الدنيا كلها، لا المجتمع العربي الجاهلي وحده، وإذا ما جئنا نتابع آثار سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم- للوقوف على مدى أثرها في امتداد الدعوة، نجد أن المعاندين الذي ناصبوا رسول الله - صلى الله عيه وسلم- العداء لم يستطيعوا أن يغيروا من وجه هذه الحقيقة الناصعة في هذه السيرة العطرة، بل كانوا يخشون أثرها، كما أن الذين لم يشاهدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- من المجتمعات الأخرى كانوا يسألون مؤكدين على صفاء هذه السيرة قبل البعثة.

ومثال المعاندين ممن رأوا الرسول - صلى الله عليه وسلم- النضر بن الحارث بن علقمة، وها هو يتوجه إلى قريش بهذه النصيحة، والحال أنه على ملتهم، فيقول: يا معشر قريش، إنه والله، قد نزل بكم أمر ما أنتم له بحيلة بعد، قَدْ كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، وكان أصدقكم وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله، ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم.

هذا مثال، ومثال من لم يروا الرسول - صلى الله عليه وسلم- وكانوا يريدون الوقوف على سيرته؛ ليحددوا مواقفهم من دعوته - كان منهم- على سبيل المثال: هرقل -عظيم الروم- حيث يشهد شهادة الحق لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وذلك كنتيجة للحوار الذي دار بينه وبين أبي سفيان، وقد كان كافرًا يومئذٍ، ولم يستطع إخفاء الحقيقة، ولنستمع إليه يحدثنا بنفسه، وذلك عندما كان في تجارة له بالشام، مع نفر من قريش، وأتوا هرقل بإيلياء، وكان قد أرسل إليهم، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال: أبو سفيان فقلت: أنا أقربهم نسبًا، فقال: ادنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا الرجل؛ فإن كذبني فكذبوه.

قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ فقلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول أحد قبله قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا؟ ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: كيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول أباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، فقال لترجمانه: قل له سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت: رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة بدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بمَ يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف؛ فإن كان ما تقوله حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليك لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.

ولقد ملك رسول الله - صلى الله عليه وسلم- موضع قدميه هرقل كما ذكر، وذلك بنور الرسالة العصماء؛ لأن الحقائق التي وقف عليها من ثنايا هذا الحوار علم عن طريقها يقينًا أنها تؤهله لذلك، ولأن الأرض لله، يرثها عباده الصالحون لإقامة أحكام الحق والعدل.

أما الآثار السلبية لمخالفة هذا المنهج - منهج الأسوة الحسنة- فنقول -وبالله التوفيق-: وتأكيدًا على بقاء هذا المنهج، واستمراره لفاعليته، فإن الله - سبحانه وتعالى- قد حَذَّرَ ورسوله الكريم من أن يخالف عمل الداعية قوله؛ لأن الداعية عن طريق سلوكه الحسن يهدي أكثر مما يقول بلسانه، ولذا فإن الله - سبحانه وتعالى- يقول -منكرًا وموبخًا-: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٤٤] وإن كانت هذه الآية قد نزلت في بني إسرائيل، إلا أنها عامة في قاعدتها، لا تختص بقوم دون قوم، ولا بجيل دون جيل، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

كذلك يقول الحق - عز وجل-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ} [الصف: من الآية: ١-٣] ومما هو مشاهد في واقع الحياة أن الأزمة العنيفة التي يعيشها البعض من الناس في المجتمع الإسلامي، والتردد الذي يصيب نفوسهم وأفئدتهم من جراء سماعهم لقول بعض الدعاة هو ما يرون من سلوك مخالف لمنهج الحق الذي يدعون إليه بألسنتهم، وهنا يكون رد الفعل المعاكس على الدعوة نفسها، لا على الدعاة فحسب؛ لأن مثل هذا السلوك من شأنه أن يبلبل الأفكار، وأن يُضْعِفَ ثقة الناس في إيجابية الدعوة من حيث إنهم يسمعون قولًا جميلًا طيبًا، ويرون فعلًا قبيحًا ذميمًا، فتستبدّ بهم الحَيْرَة بين ما يسمعون وما يشاهدون، فيفتر في أرواحهم الحماس الذي أشعلته العقيدة بمنطقها السديد، وينطفئ تبعًا لذلك نور الإيمان الذي كان مقدرًا له أن يضيء القلوب، ويبدد عنها حجب الظلام التي أطبقت عليها بفعل السيئات المكتسبة، والناتجة عن مثل هذا السلوك الخاطئ؛ إن الألفاظ المنمقة والعبارات المنسقة، مهما صَاحَبَهَا من انفعال ظاهري فإنها لا تصل إلى قلب السامع، بل تذهب كالزبد جُفَاء؛ لأنها لم تنطلق من قلب استحال صاحبه إلى ترجمة حقيقية بفعله لما يقول بلسانه ويدعو إليه، ولو أن هذه العبارات كانت ضعيفة في الأسلوب والأداء من حيث اللمعان والبريق، فإنها ولا شك تستمد قوة وفعالية وإيجابية من حال الداعية، لا من جمال الأسلوب وجرسه الرنان.

فكأن الالتزام والعمل لما يدعو المرء الآخرين إليه هو أجدى وأنفع وسائل الإصلاح، كما يتضح من الربط بينهما في سياق واحد، ومن المناسب في هذا المقام أن نضم إلى هذه الأدلة القرآنية دليلًا من السنة، على عمق تأثير الأسوة الحسنة في النفس البشرية، وسرعة الاستجابة لها من أي كلام نظري؛ فقد أورد الإمام البخاري في صحيحه: "أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا الناس يوم الحديبية إلى الحلق ونحر الهدي والتحلل، وقرر ذلك الأمر ثلاث مرات، لكن أحدًا لم يلتفت إلى هذا الأمر، حتى شَقَّ ذلك على النبي - صلى الله عليه وسلم- وذكر ذلك لأم المؤمنين أم سلمة - رضي الله عنها- فقالت: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم منهم أحدًا كلمة حتى تَنْحَرَ بُدْنَك، وتدعو حالقك، فيحلقك، فخرج -صلى الله عليه وسلم- فلم يكلم أحد منهم، حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا".

ثالثًا: إن التزام الداعية بما يدعو الآخرين إليه يجعل في دعوته حرارة وحيوية؛ لأنها تخرج من قلب منفعل بها، ويعبر عنها لسان صادق اللهجة فيها، وبذا تتأثر بكلامه القلوب وتنفعل بصدق حديثه النفوس، فإن ما خرج من القلب وصل إلى القلب.

يقول يحيي بن معاذ - رضي الله عنه-: " القلوب كالقدور في الصدور تغلي بما فيها، ومغاريفها ألسنتها فانتظر الرجل حتى يتكلم فإن لسانه يغترف لك ما في قلبه من بين حلو وحامض، وعذب وأجاج، يخبرك عن طعم قلبه اغترافُ لسانه.

رابعًا: إن العلم في الإسلام، منه ما هو نافع، ومنه ما هو غير ذلك، والذي يحدد كونه من هذا الصنف أو ذاك هو مدى انتفاع الإنسان به لنفسه؛ فإن عَمِلَ به كان نافعًا، وكان صاحبه عالمًا، وإلا صار الجهل ألصق به دون نظر إلى ما يحفظه من العلم قل أو كثر، يقول سفيان بن عيينة -رضي الله عنه-: "إن أنا عملت بما أعلم فأنا أعلم الناس، وإن لم أعمل بما أعلم فليس أحد في الدنيا أجهل مني".

ويقول الفضيل بن عياض -رحمه الله-: "لا يزال العالم جاهلًا بما علم حتى يعمل به، فإذا عمل به كان عالمًا.

وقيل في هذا المعنى أيضًا: ليس العالم الذي يعرف الحلال من الحرام، ولكن العالم الذي يعرف الحلال فيلتزمه، ويعرف الحرام فيجتنبه، وإذا ثبت ذلك تأكد لدينا أن من عجز عن دعوة نفسه وإصلاحها وتزكيتها بما تيسر له تحصيله من العلم، سيكون عن إصلاح غيره أعجز، فإنه لا يستقيم الظل والعود أعوج، وفاقد الشيء لا يعطيه، ومن لا يملك نصابًا لا يزكي.

خامسًا: وأخيرًا فإن القدوة الحسنة دليل عملي على أن الالتزام بالدعوة ومبادئها من الأمور المستطاعة، وإنها في مقدور كل إنسان، وبدون الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة تظل التعاليم والتوجيهات حبرًا على ورق، ويصبح الداعية في نظر الناس رجلًا يسبح في أجواز الخيال، مما يسيء إلى نفسه ويسيء إلى دعوته.

وهكذا فلا بد للدعاة إلى الله - عز وجل- من أن يقرنوا في دعوتهم بين القول و العمل، وليعلموا أن الأسوة الحسنة وسيلة من وسائل الدعوة التي لا تخطئ هدفها أبدًا، من هنا كانت أهمية الأسوة الحسنة في الدعوة إلى الله -عز وجل.

أهمية الأسوة الحسنة.

إن من الوسائل المهمة جدًّا في تبليغ الدعوة إلى الله -عز وجل- وجذب الناس إلى الإسلام؛ الأسوة الطيبة للداعي، وأفعاله الحميدة، وصفاته العالية، وأخلاقه الذاكية، مما يجعله قدوة طيبة يتأسى به الناس في سلوكهم، ويكون بها كالكتاب المفتوح يقرأ فيه الناس معاني الإسلام، فيقبلون عليها وينجذبون إليها؛ لأن التأثر بالأفعال والسلوك أبلغ وأكثر من التأثر بالكلام فقط. إن الإسلام انتشر في كثير من بلاد الدنيا بالأسوة الحسنة والسيرة الطيبة للمسلمين، التي كانت تجلب أنظار غير المسلمين وتحملهم على اعتناق الإسلام، فالأسوة الحسنة التي يحققها الداعي بسيرته الطيبة، هي في الحقيقة دعوة عملية للإسلام، يستدل بها غير المسلم على أحقية الإسلام، وأنه من عند الله تعالى، لا سيما إذا كان سليم الفطرة سليم العقل.

- أصول الأسوة الحسنة:

فالأسوة الحسنة والسيرة الطيبة التي بها يكون الداعي المسلم قدوة طيبة لغيره، ترجع إلى أصلين كبيرين:

- حسن الخلق.
- وموافقة العمل للقول.

فإذا تحقق هذان الأصلان حسنت سيرة الداعية، وكانت سيرته الطيبة دعوة صامتة إلى الإسلام، وإن فاته هذا الأصلان؛ ساءت سيرته وسارت دعوة صامتة منفرة عن الإسلام، فليتق الداعي ربه في هذا الأمر الخطير، ولا يكون منفرًا عن دين الله تعالى بسيرته، وهو يريد الدعوة إلى الله بقوله. ونتناول هذين الأصلين بمزيد من التفصيل.

فأما الأصل الأول: فهو أخلاق الداعي:

إن أخلاق الداعي المسلم هي أخلاق الإسلام، التي بينها الله -عز وجل- في قرآنه، وفسرها رسول الله - صلى الله عليه وسلم- في سنته، وانصبغ بها صحابته الكرام في سلوكهم، وهي لازمة لكل مسلم، وما عليه إلا أن يعرض نفسه عليها، ليزن نفسه في ميزانه، ليعلم ما عنده منها وما لم يصل إليه بعد منها، ونذكر هنا بعض تلك الأخلاق الإسلامية التي لها صلة وثيقة بعمل الدا عي ويحتاج إليها حاجة ملحة تبلغ حد الضرورة إذا أراد النجاح في عمله الطيب المبرور، وفيما يلي بعض ما يجب أن يتحلى به الدعاة إلى الله -عز وجل- من أخلاق وصفات:

أما الخلق الأول؛ فهو العفة والإيثار : ينبغي أن يتعفف الداعية عما في أيدي الناس؛ ليظل عزيزًا مرفوع الرأ س، قادرًا على أن يقول ما يريد، وأن يبلغ ما يلزم إبلاغه، دون أن يحمل منة في عنقه لأحد تجعله مغلول اليد أو مغلول اللسان، وبقدر ما يستطيع الداعية أن يحقق لنفسه من العفة والورع، بقدر ما يكتسب من تقدير وقدرة وإمكانية، ويجمل بالداعية أن ينأ بنفسه عن أي نزعة ذاتي ة أو أنانية، بل يكون غيريًّا مؤثرًا للمصلحة العامة على مصلحته الخاصة، بل مؤثرًا لمصالح إخوانه على مصالح نفسه وذويه، ولقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مثالًا في هذا الإيثار، فعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: «أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نفذ ما عنده قال : ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر».

ثانيًا: التسامح وسعة الأفق : يمتاز الداعية برو ح التسامح، لعلمه أن كل ابن آدم خطاء، وأن الله يقبل التوبة عن عباده، فكيف لا يقبلها العباد بعضهم من بعض، والاعتذار توبة، ثم إن مهمة المصلحين هي إثارة المحبة وال تعاطف بين الناس عامة، لتجميع القلوب، فضلًا عن لزومها بين خاصة الصالحين لتقوية الصف المؤمن، وقضية الخصومة والنزاع إنما تنشأ في الواقع من المبالغة في الاعتداد بالكرامة الشخصية، مع ضيق في التصور أو خطأ في الفهم، لهذا كان أسلوب الدعاة في القضاء على أسباب الخصو مة والفرقة يقوم على اعتماد التسامح، وسعة التصور لجوانب القضايا بين الناس، وقديمًا قيل : التمس لأخيك من عذر إلى سبعين عذرًا، فإن لم تجد فقل : لعل له عذرًا لا أعرفه، والدعاة إلى الله -عز وجل- في سعيهم للهدف الكبير لا بد لهم من التغاضي عن الأمور الصغيرة التي تنشأ في الطريق أثناء المسيرة، قال الله - عز وجل- لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم- {وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } [الأحزاب: من الآية : ٤٨] وقال لجماعة المسلمين: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَ اءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} [آل عمران: من الآية: ١٠٣] والعاقل لا يضحي بالآلة الكبيرة النافعة؛ لأن بعض مفاتيحها قد أصيب بعطب، بل يجتهد في إصلاح هذا العطب حرصًا على تلك الآلة، وإن العناصر الجيدة النافعة في الأمة نادرة قليلة العدد، فيلزم الصفح عن زلاتهم العارضة رجاء نفعهم الطويل {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ } [آل عمران : من الآية: ١٥٩].

إن الدعوة الإسلامية تجمع ولا تفرق، وتزرع الحب وتطرد معاني البغض، وتضحي بالقليل حرصًا على نيل الكثير، فمن فهم تلك المعاني وتشربتها نفسه قولًا وعملًا، فعسى أن يكون من المهتدين.

ثالثًا: الاستعداد للتضحية:

فالداعية رائد يسوق الناس إلى البذل والتضحية ليتم بذلك التعادل المطلوب في كل مجتمع بين الفقر والغنى، وبين القوة والضعف، وبين العلم والجهل، وبين العافية والمرض، فيلزم أن يكون قدوة في التضحية أيضًا، والوقت ثمين؛ لأنه هو الحياة، ويضحي بماله قل أو كثر ليواسي أصحاب الاحتياجات ويضحي باحتمال ما يتوقع من أذى في النفس والبدن، لقوله تعالى لأنبيائه: {وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } [آل عمران: من الآية: ١٨٦] ومن المؤسف أن حرص الناس على تفادي هذا الأذى، يمنعهم من تقدير الخير، كما أن على الداعية أن يضحي بما يرجو من نفع، حيث كان تعامله مع الله -سبحانه وتعالى- وهو مالك النفع والضرر وقلوب العباد بيده، فهو لا يحرص على أي عرض زائل، بل يرجو ما عند الله تعالى.

وأخيرًا: فإن على الداعي أن يضمر التضحية بروحه في سبيل الله، وأن يطمع في أن يرزقه الله تعالى الشهادة فعلًا، ويدعو الله تعالى ويل ح في الدعاء أن يبلغه الله منازل الشهداء، وإذا تم له ذلك بورك سعيه، وارتفع شأنه، واستطاع التأثير في غيره.

رابعًا: من الأخلاق التي يجب أن يتخلق بها الداعي كذلك، الصلة بالعاملين الصالحين: فإن مما يميز الدعاة في سلوكهم الخاص، حرصهم على التعرف على إخوانهم العام لين في ميدان الدعوة، ودوام الصلة بهم، وزيارتهم والإحاطة بجملة أحوالهم، ومعلوم أن هذا التعارف بصورته العامة، إنما هو من أسرار الوجود، قال تعالى: {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات: من الآية : ١٣] ولكنه لازم بالنسبة للمجموعات المتجا ورة أو المتعاونة، وهو أشد لزومًا بالنسبة للدعاة إلى الله - عز وجل- فإذا تصورنا مثلًا عشرين عالمًا في بلدة واحدة، لا يلوي أحد منهم على أحد ولا يلتقون ولا يتعاونون، فما عسى أن يكون النفع منهم لهذا البلد، إنهم -ولا شك- سيكونون محلًا للنقد الشديد من عامة الناس، لأن وضعهم هذا مناقض تمامًا لما يدعون إليه، ومناقض كذلك لما تنزلت به آيات الله - عز وجل- وأسباب الصراع بين العلماء كثيرة، ولكن أولياء الله هم الذين لا يعبئون بالمظاهر ولا بما يلقيه الشيطان في أماني الجاهلين، وهم الذين لا يحملون ضغنًا ولا يهجرون إخوانهم لكبيرِ أمرٍ ولا لحقيره، ويذكر الداعية الكبير الشيخ عبد البديع صقر، أنه كان بمجلس الشيخ محب الدين الخطيب - رحمه الله- في مصر، فجاء على ذكر رجل اسمه سليمان الندوي من علماء الهند، فقال لشيخه - الشيخ محب الدين الخطيب- قال له: لعله أبو الحسن الندوي، قال: فنظر إلي متعجبًا، وقال: كيف تكون منشغلًا بالدعوة إلى الله -عز وجل- ولا تعرف الداعية الكبير الشيخ سليمان الندوي -رحمه الله- اذهب وتعرف على من يعملون معك في نفس الميدان، فإن ذلك من مستلزمات نشر الدعوة إلى الله تعالى.

إن الدعاة العاملين لله سبحانه وتعالى، يجب أن يتناسوا م ا يكون بين عامة الخلق من صراع الشخصيات، واستعراض الوجاهات، فهذا كله من الدنيا، والله - عز وجل- يقول: {كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ} [آل عمران: من الآية: ٧٩].

خامسًا: الإخلاص: وحقيقة الإخلاص، التبري عن كل ما د ون الله تعالى، قال الكفوي : الإخلاص هو القصد بالعبادة إلى أن يعبد المعبود بها وحده.

ومن شروط الإخلاص، أن يبتغى بالعمل وجه الله تعالى وحده لا شريك له، فإذا ابتغي بالعمل وجه الله تعالى ووجوه الناس لم يقبل من صاحبه، وكان مردودًا عليه، وقد روي عن أبي أمامة الباهلي -رضي الله عنه- قال: «جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : لا شيء له. فأعاد ثلاث مرات، يقول له رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: لا شيء له، ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغي به وجهه».

وقال شهر بن حوشب: جاء رجل إلى عبادة بن الصامت -رضي الله عنه فقال: أنبئني عما أسألك عنه، أرأيت رجلًا يصلي يبتغي وجه الله تعالى ويحب أن يحمد، ويصوم يبتغي وجه الله تعالى ويحب أن يحمد، ويتصدق يبتغي وجه الله تعالى و يحب أن يحمد، ويحج يبتغي وجه الله تعالى ويحب أن يحمد فقال عبادة : ليس له شيء، إن الله تعالى يقول : "أنا خير شريك، فمن كان له معي شريك فهو له كله لا حاجة لي فيه ". وفي الحديث يقول الرسول -صلى الله عليه وسلم- : «ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم : إخلاص العمل لله، والنصح للأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم».

فالواجب على الداعية أن يتحلى بهذا الخلق الإسلامي الكريم، الذي ينعكس إيجابًا على دعوته فيجعلها مثمرة ناجحة، وأن يعلم أن الرياء ولو كان قليل محبط للعمل، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- «اليسير من الرياء شرك ». كما أن عليه أن يتنبه إلى أن حرارة الإيمان تنطفئ رويدًا رويدا كلما هاجت في النفس نوازع الأثرة وحب الثناء، والتطلع إلى الجاه وبعد الصيط، والرغبة في العلو والافتخار؛ وذلك لأن الله تعالى يحب العمل النقي من الشوائب المكدرة: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [الأحزاب: من الآية: ٤٨].

سادسًا: الصبر: الصبر من أبرز الأخلاق اللازمة للمؤمنين عامة، وللدعاة خاصة، فهو فوق كونه من عدة الداعية لتبليغ دعوته، هو أيضًا من فروض الإيمان، بل هو نصفه، وهو أكثر خلقٍ تكرر في القرآن الكريم، وذلك لأهميته في حياة المؤمن، فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن وجد فإيمان ضعيف لا يبعث على عمل، ولا يهدي إلى خير، ولا يدفع إلى التزام، ومن الآيات الواردة في الصبر، قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِين } [البقرة، الآية: ١٥٣] وقوله تعالى: {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين } [التوبة: من الآية : ١٢٠] وقوله سبحانه : {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَه } [الكهف: من الآية: ٢٨] وقوله -عز وجل-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا } [آل عمران: من الآية: ٢٠٠] وهذا قليل من كثير مما ورد في كتاب الله تعالى عن الصبر، وقد وردت السنة النبوية المطهرة بأحاديث كثيرة في الصبر كذلك.

من هذه الأحاديث ما روي عن صهيب - رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له »، وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه- أن الرسول - صلى الله عليه وسلم- قال: «ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر »، وعن ابن عمر - رضي الله عنهما- أن النبي - صلى الله عليه وسلم- قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من المؤمن الذين لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » والداعية في أمس الحاجة إلى الصبر، خصوصًا وأن ناموس الكون اقتضى أن يكون لأصحاب الدعوات أعداء يعارضون دعوتهم، ويمكرون بهم، ويكيدون لهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولذلك كان لآدم إبليس، ولإبراهيم نمرود، ولموسى فرعون، ولمحمد - صلى الله عليه وسلم- أبو جهل وغيره من جبابرة قريش، قال تعالى : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِين} [الأنعام: من الآية: ١١٢] ومن ثم كان على الدعاة أن يستعينوا بالصبر على مواجهة هذا البلاء {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِين} [الأنعام: من الآية: ٣٤].

سابعًا: التواضع: إن من أعظم الأخلاق التي يجب أن يُتصف بها المسلم عامة، والداعية خاصة، خلق التواضع، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى والنفس، يتواضع من عرف ربه وعرف قدر نفسه، والتواضع على نوعين: الأول؛ تواضع العبد عند أمر الله امتثالًا، وعند نهيه اجتنابًا، فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره، فيبدو منها نوع إباء وشرود، هربًا

من العبودية، وتثبت عن نهيه طلبًا للظفر بما مُنعت منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله تعالى ونهيه، فقد تواضع للعبودية، فهذا النوع الأول.
أما النوع الثاني : فهو تواضع لعظمة الرب وجلاله، وخضوعه لعزته وكبريائه، فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك وغضبه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة الله قلبه، واطمأن لهيبته، وأخبت سلطانه، فهذا غاية التواضع، وهو يستلزم الأول من غير عكس، والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين معًا، والتواضع صفة لازمة لعباد الرحمن الذين عدد الحق تعالى أوصافهم في القرآن الكريم، قال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا} [الفرقان: من الآية: ٦٣].
وقد دعت السنة المطهرة إلى التحلي بهذا الخلق الكريم في جملة من أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم منها : ما روي عن ركب المصري - رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : «طوبى لمن تواضع في غير منقصة، و ذل في نفسه من غير مسألة، وأنفق مالًا جمعه في غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة»، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».
ولا ريب أن من الحكمة أن يُتصف الداعي إلى الله تعالى بخلق التواضع، فهو أحوج إليه من غيره، لأنه يخالط الناس ويدعوهم إلى منهج الحق -جل وعلا- كما يدعوهم إلى أخلاق الإسلام، فلا ينبغي أن يدعوهم إلى أخلاق لا يتصف بها، وبالإضافة إلى هذا، فإن من طبيعة الناس أنهم لا يقبلون قول من يستطيل عليهم ويحتقرهم ويستصغرهم ويتكبر عليهم، وإن كان ما يقوله حقًّا وصدقًا، فهم ينفرون من المتكبر، ويغلقون قلوبهم دون دعوته ووعظه، لأجل هذا أمر الحق سبحانه رسوله - صلى الله عليه وسلم- بقوله: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِين} [الشعراء: من الآية: ٢١٥].
ثامنًا: الرحمة: من الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها الداعية لينجح في دعوته ويؤثر في من حوله: الرحمة، وفيها يقول الإمام ابن القيم: "إن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه وشقت عليها" فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك، فمن رحمة الأب بولده أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود عليها، والتي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، و إن ظن أنه يرحمه ويرفهه ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل، ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على العبد؛ فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به، والرحمة في أفقها الأعلى ومعناها الأسمى، صفة الحق سبحانه وتعالى، فإن رحمته -عز وجل- وسعت الأرجاء وشملت الأرض والسماء وعمت الوجود، قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: من الآية: ١٥٦].
وقال سبحانه: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيم} [غافر: من الآية: ٧] كما أنها صفة النبي - صلى الله عليه وسلم- وصفه الله سبحانه بها في كتابه، قال تعالى : {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيم } [التوبة: من الآية : ١٢٨] ومن رحمة النبي - صلى الله عليه وسلم- بأمته حرصه على دلالتها على ما يبعدها عن أسباب الهلاك والضياع، قال - صلى الله عليه وسلم- : «إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد نارًا، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه »، ولقد دعا الإسلام الحنيف إلى التحلي بخلق الرحمة في جملة من أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم- منها: ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» وعن أبي هريرة -رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قال: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي».
إن على الداعية أن يدرك بوضوح أن رسالته للناس جميعًا هي رسالة رحمة، كما أخبر الحق سبحانه وهو يخاطب رسوله - صلى الله عليه وسلم فقال : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِين} [الأحزاب: من الآية: ٤٨] كما أن الكتاب العظيم الذي يدعو الناس إليه إنما هو كتاب هداية ورحمة، قال تعالى : {وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون} [الأعراف: من الآية : ٥٢] وقال سبحانه يصف القرآ ن الكريم : {وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِين } [النمل: من الآية : ٧٧] ومن ثم فإن من الحكمة أن يتحلى الداعية بخلق الرحمة، هذا الخلق الذي له أثاره الإيجابية وفوائده النافعة في ميدان الدعوة إلى الله تعالى، والتي منها:
أولًا: أنها سبيل الداعية للوصول إ لى قلوب المدعوين وعقولهم، والتأثير في واقعهم وسلوكهم، ودفعهم نحو الخير الذي به تصلح نفوسهم في الدنيا وتسعد في الآخرة.
ثانيًا: أنها تهون على الداعية ما يلقاه من أصحاب الغفلة والجاهلة، حين ينظر إليهم بعين الرحمة على أنهم مرضى يحتاجون إلى علاج، وأن غفلتهم وجه الاتهم لا تكاد تسمح لهم برؤية الحق، الذي في اتباعه والإذعان له صلاحهم وسعادتهم . ومن هنا فلا يعجب من مقابلة دعوته لهم بالإعراض والصدود، بل إنه ليتحمل منهم الأذى والإساءة، ويعاملهم بالصفح والعفو، ويدعو لهم بالهداية، وهكذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم- يفعل في دعوته، ويدعو لقومه قائلًا: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعملون».
ثالثًا: أنها سبب في إقبال الناس على الداعية، والتفافهم حول دعوتهم، واجتماعهم على توجيهه ونصحه، وتلك طبيعة الناس ينفرون من الغليظ القاسي، ويلتفون حول الرحيم اللين، قال تعالى ممتنًا على الرسول -صلى الله عليه وسلم-: {فبما رحمت من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك } [آل عمران : من الآية: ١٥٩]. هذا عن الأخلاق التي يجب أن يُتصف بها الداعية والتي تمثل الأصل الأول من أصول الأسوة الحسنة.
ننتقل الآن إلى الحديث عن الآثار المترتبة على ال تزام الداعية أخلاق الإسلام، حين يلتزم الداعية أخلاق الإسلام الحنيف، ويضبط سلوكه وفق تعاليمه السمحة، تكون الثمرة الطيبة متمثلة في أمور:
الأمر الأول : دعوة ناجحة مؤثرة، تخرج من قلب ولسان داعية سمت روحه، ولطف حسه، ورهف وجدانه، وعاش الإسلام بمبادئه وقيمه، قبل أ ن يدعو الناس إليه، لتخترق قلوب الناس وعقولهم، وتؤثر في سلوكهم وأخلاقهم . وقد قيل: ما خرج من القلب دخل إلى القلب، وما خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان.
الأمر الثاني: قدوة حسنة نافعة يتأثر بها الناس حين يرون إسلامًا يتحرك على الأرض، يلمسونه في شخص هذا الداعية و يرونه متمثلًا في أخلاقه وسلوكه، وكذلك كان النبي - صلى الله عليه وسلم- الذي تقول عنه أم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها- حين سُئلت عن خلق النبي - صلى الله عليه وسلم- قالت: «كان خلقه القرآن». والداعية يتجه نحو الكمال بقدر قربه وتأسيه بالداعية الأول وهو الرسول -صلى الله عليه وسلم.
وأما الأمر الثالث: فهو النجاة من مقت الله وسخطه وعذابه الذي ينزله بمن يقول بلسانه ما لا يفعل بسلوكه، قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ} [الصف: من الآية: ٢، ٣] وقال سبحانه: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُون} [البقرة: من الآية: ٤٤]. كما قال - صلى الله عليه وسلم-: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فتجتمع أهل النار عليه فيقولون : يا فلان، ما شأنك : ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه». قال: وإني سمعته يقول - يعني النبي - صلى الله عليه وسلم- «مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت : ما هؤلاء؟ قال : هؤلاء خطباء أمتك من أهل الدنيا، كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ». هذا عن الأصل الأول من أصول الأسوة الحسنة، وهي تخلق الداعية بأخلاق الإسلام.
وأما الأصل الثاني: فهو موافقة العمل للقول:
فليحذر الداعي من مخالفة أفعاله لأقواله، فإن النفس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه، ولا يوافق فعله قوله، ولهذا قال شعيب عليه السلام لقومه كما جاء في القرآن الكريم: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْه} [هود: من الآية: ٨٨] ولهذا أيضًا حذرنا الله - سبحانه وتعالى- من مخالفة أفعالنا لأقوالنا، كما جاء في الآية التي ذكرناها آنفًا، وهي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ } [الصف: من الآية: ٢، ٣] فليحمل الداعي نفسه دائمًا على موافقة أفعاله لأقواله فإن هذا أدعى للإقبال عليه وقبول قوله، ومما يعين الداعية على ذلك تزوده بخير الزاد وهو التقوى، فكلما كان الداعية متقيًا ربه - سبحانه وتعالى- كلما كان عمله موافقًا قوله.
وهكذا يجب على الداعية حتى يكون أسوة حسنة وقدوة طيبة لمدعويه أن يتحقق فيه هذا الأصلان:
الأصل الأول: وهو حسن الخلق.
والأصل الثاني: وهو موافقة قوله لعمله.
هنا تتحقق الأسوة الحسنة وينتفع الناس بكلام الداعية، وتؤثر فيهم دعوته، ويكون داعية صالحًا في نفسه مؤثرًا في غيره تأثيرًا إيجابيًّا.

المراجع والمصادر

١- الفيومي، المصباح المنير، ١/٢٠٠٠ المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٢١م.
٢- الأصفهاني، الراغب، المفردات، تحقيق: محمد سيد كيلاني، القاهرة ١٩٦٩.
٣- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، ١٩٠٢/٥، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، القاهرة ١٩٨٢م.
٤- ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٦٣ هـ.
٥- الكفوي، أبو البقاء ، الكليات: معجم المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٣م.
٦- التهانوي، محمد بن علي ، كشف اصطلاحات الفنون، تحقيق : لطفي عبد البديع ، القاهرة ١٩٦٣.
٧- الشرنوبي، أحمد محمد، الحكمة في ميدان الدعوة إلى الله تعالى، بحث منشور في حولية كلية أصول الدين القاهرة، جامعة الأزهر ٢٠٠٦م.
٨- القرضاوي، يوسف، ثقافة الداعية مكتبة وهبة، الطبعة الثامنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.
٩- البيانوني، محمد أبو الفتح ، المدخل إلى علم الدعوة : مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

١٠- موسوعة نضرة النعيم، إعداد مجموعة من المختصين، بإشراف : صالح بن عبد الله حميد، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن ملوح ، طبعة دار الوسيلة، السعودية، ٢٠٠٤م.
١١- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق : عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٩م.
١٢- الإمام الجويني، الكافية في الجدل، تحقيق د. فوقية حسين محمود، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩م.
١٣- حسين عبد الرءوف ، فقه الدعوة الإسلامية ، القاهرة، ط أولى، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧.
١٤- حسين خطاب ، ضوابط العمل الدعوي في مجالات : الموعظة، المجادلة، الحكم على الآخرين ، ص ٦٩، ٧٢، ٧٩، ٨٥ مكتبة الأزهر الحديثة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
١٥- اللحيان، عبد الله بن إبراهيم ، دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، مطابع الحميضي - السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.
١٦- زيدان، عبد الكريم، أصول الدعوة، دار عمر بن الخطاب الإسكندرية، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.
١٧- الشرنوبي، أحمد محمد، موقف الإسلام من أهل الكتاب، رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين القاهرة.